

مخين بسبيلو

علقوا ذلك الحذاء في سلسلة حول أعناقكم ..

أول قدم عربية مصرية هبطت فوق الضفة الشرقية للقناة السويس هي ، ولا شك ، ذلك التوقيع الرائع في « اوتوغراف » مصر العربي ، اذ كان على الحذاء المصري ان يضع توقيعه فوق رمال سيناء . والامر نفسه بالنسبة الى القدم العربية السورية التي هبطت خلف خط وقف اطلاق النار ، حيث كان على الحذاء السوري ان يضع توقيعه فوق صخور المرتفعات السورية المحتلة . وهكذا اصبح ، الى جانب توقيع القدم الفلسطينية ، توقيع القدم المصرية ، وتوقيع القدم السورية .

ان الاثر الذي طبعته اول قدم مصرية فوق رمال الضفة الشرقية من القناة يجب المحافظة عليه ، ويجب ان لا تطمسه الريح . يجب ان تؤخذ صورة ذلك الاثر ، لتلك القدم ، ونطبع منها ملايين الصور ، ونقوم بتوزيعها في مختلف بلدان العالم . يجب ان يتحول ذلك الاثر ، لتلك القدم ، فوق رمال الضفة الشرقية للقناة ، الى طابع بريد .. لكل رسائنا الى العالم ، العالم الذي شطب من خارطته اسم المنطقة التي تعيش فيها ، واصبح يعرفنا بمنطقة « الاحارب - للاسلام » !

كم في ودي ان اقترح شيئاً آخر ! كم في ودي ان اعرف اسم المقاتل الاول الذي وضع القدم الاولى فوق رمال الضفة الشرقية المحتلة من القناة ، عندما سوف اقترح عليه ان يقدم حذاه لنا ، مقابل كل الاحذية العربية التي لم تشترك في القتال بعد - رغم انني اعرف تماما ان ذلك المقاتل سيرفض كل تلك الاحذية التي لم تقا ، ويفضل القتال بلا حذاء !

لو اصبح حذاء ذلك المقاتل في يدي لطالبت كل النحاتين ، في وطننا العربي ، بان يقوموا بنحت نموذج طبق الاصل لتلك القدم .. وساقترح على كل دور التوزيع في بلادنا ، دور التوزيع التي كانت توزع صورة حذاء « الاحارب - للاسلام » على غلاف كل الكتب التي كانت تصدرها ، ان تقوم بتوزيع ذلك النموذج . يجب ان يعرض ذلك الحذاء في الواجهات الزجاجية للمكتبات العربية ، لا كإفصل كتاب لعام ١٩٧٣ ، بل كأفضل كتاب منذ عام ١٩٤٨ . ويجب ان لا يقتصر الامر على المكتبات ، فلا بد من تعميم هذا النموذج ، الكبير او الصغير ، لتقديم المقاتل العربي ، على كل مكاتب جامعة الدول العربية ، وعلى المحققين الصحافيين للدول العربية ، فها هم ، اخيراً ، في استطاعتهم ان يقدموا للرأي العالمي شيئاً حقيقياً .

انا بالطبع لا اطالب هواة تعليق السلاسل الفضية او الذهبية حول أعناقهم ، بان يعلقوا نموذجاً صغيراً من ذلك الحذاء لذلك المقاتل العربي في سلسلة حول رقابهم .. ولا اطالب ايضاً اصحاب السيارات الخاصة او العامة ، بتعليق نموذج من ذلك الحذاء خلف الواجهات الزجاجية لسياراتهم .. كما لا اطالب ، للمرة الثالثة ، هواة جمع الاحذية كديكورات لبيوتهم ان يجعلوا ذلك الحذاء جزءاً من ديكور البيت ، ولكنني اطالب بشيء واحد ، ان لم يوافقوا على تعليق ذلك الحذاء في سلسلة حول رقابهم ، او تعليقه خلف الواجهات الزجاجية لسياراتهم ، وان لم يرتضوا به كجزء من ديكور بيوتهم .. فلا بد ان يتحول ذلك الحذاء الى آنية زهور ، يزيبن منازلهم .

اكتب هذا عن الحذاء العربي ، المصري والسوري والفلسطيني ، وانا اعلم تماما ان الارض العربية المحتلة ، ان سيناء والمرتفعات السورية وفلسطين المحتلة كلها ، ليست ابدا هي تلك الكعكة التي يمكن ان تفوس فيها السكن العربية بسهولة .. ان الارض المحتلة ليست كعكة ، ولكن اذا لم تكن كعكة بالنسبة لنا فيجب ان لا تكون كعكة ابدا بالنسبة الى العدو ، يفرس فيها ست شمعات ، ويشعلها ، ثم يطفئها بمناسبة العيد السادس ليلاد الاحتلال للارض العربية ، ويواصل الاحتفال بعيد ميلاد الاحتلال على مر السنوات .

انا اكتب هذا عن الحذاء العربي ، وخارطة جبهة القتال ليست امامي - وانا لا اقوم بمسؤولية غرس الدبابيس فوق الخارطة - فعلى المائدة التي اكتب عليها لا توجد خارطة ، بل كومة من الجرائد العربية والاجنبية ، ورايو ترازستور ، والمحقق الاول لمجسلة « فلسطين الثورة » ، وذلك التلفزيون ، ذو الرقم الخاص ، والمكسر للاتصالات التليفونية الخاصة للاخ ابو عمار - وهو في احد المواقع المتقدمة من خطوط المواجهة الامامية مع العدو - وفوق رأسي صورة علي ابو اياد ..

اكتب هذا في الوقت الذي قرنا فيه ، في الاعلام الفلسطيني الموحد ، تأجيل الاحتفال بذكرى مصرع الشاعر بابلو نيرودا . واعتقد بان بابلو نيرودا سيغطي صوته لقرار التأجيل ، فالرصاص الذي يتقرب الآن الخوذة الفولاذية للفاشية العسكرية الاسرائيلية المحتلة ، ينطلق من تلك الخوذة ليضرب الخوذة الفاشية العسكرية الاخرى لتقتله سلفادور الليندي ، وبابلو نيرودا ، والوف عمال المناجم في التشيلي .

بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، انطلقت بعض مكبرات الصوت تطالبنا بوضع أقدامنا العربية في لفائف القطن ، وانطلقت بعض مكبرات الصوت الاخرى تطالبنا بوضع أقدامنا في الجبس ، وتعليقها

الى أعلى ، ونحن نتمدد فوق سرير وقف اطلاق النار في مستشفى « الاحرب - للاسلام » . اما مكبرات الصوت الثالثة ، فلقد رآحت تطالب ، على الدوام ، اما بدق المسامير في القدم الفلسطينية ومنعها من الحركة أو في حالة رفض القدم الفلسطينية لاستقبال المسامير في لقدمها ، ان تكون هناك عملية قطع للساق الفلسطينية . ولقد واجهت القدم الفلسطينية ، عبر السنوات الثلاث الماضية ، كل مؤامرات وحمولات الهجوم بالسكاكين مرة وبالمسامير مرة أخرى على الساق الفلسطينية ، وكانت المهمة الدموية اما دق المسامير في القدم الفلسطينية ، أو قطعها ..

كل هذا أمامي وأنا أكتب عن الحذاء العربي . ومن خط التليفون الساخن مع الاخ ابو عمار يأتي صوته خاطفا كومض البرق ، او كومض ضربات السكين وهي تفوق في اللحم :
- انهم يضعون صلبان الورق المصمغ فوق نوافذهم في الارض المحتلة ، ويضعون الصلبان ايضا نلى اخبار المارك التي يخوضها مقاتلونا خلف خطوطهم ..

وجاءت تلك القدم ... جاء ذلك الحذاء العسكري الثقيل ، الحذاء ذو الكعب الذي لا يبلغ ارتفاعه الثلاثة سنتيمترات ، فاذا بها تفعل فعلها الشديد ، اكثر بكثير مما فعلته الكعوب العالية جدا لكافة أجهزة الاعلام العربية .

لقد انتصر كعب المحارب العربي على كل الكعوب العالية ، التي كانت تسيير في منطقة « الاحرب - للاسلام » ، تماما كما تسيير الكعوب العالية في شارع الحمراء . وحين انطلقت تلك الاحذية المصرية ذات الكعوب المنخفضة فوق رمال سيناء .. وحين انطلقت احذية سورية اخرى فوق المرتفعات السورية ، والى جانبها وفي مقدمتها تلك الاحذية الفلسطينية ، أصبح على العيون الاوروبية والاميركية ان ترى بعينين ، وليس بعين واحدة . لقد أوشك الحذاء العربي ان يتحول الى سرعة ، وأوشك مصممو الاحذية ان يحولوها الى سرعة حذاء ٧٢ - ٧٤ .

لقد ذقت القدم العربية لذة طبع القبله الاولى - بعد سنوات طويلة من الحرمان - على صدر الارض العربية المحتلة ... وأنا لا أراهن على تلك القدم كحصان في سباق الخيول ، ولكنني ألف شراييني كلها حولها ... فلا الشعر العظيم ، ولا الكتابة العظيمة التي تبقى ، هو ذلك الشعر او تلك الكتابة التي تحتكر الكتابة دائما عن الانتصارات - وعن الانتصارات وحدها ! فالشعر العظيم والكتابة العظيمة قد وقفت ، عبر مراحل التاريخ كلها ، مع اولئك الذين يقاتلون وليس في جيوب معاطفهم - بوليصة تأمين الانتصار ، موقعة من أية شركة تأمين !

لقد سقط سبارتاكوس العظيم قبل سبعين عاما من الميلاد وبقي اسمه ، وسقط اسم القائد الروماني الذي هزمه تحت حذاء التاريخ - من يذكر الآن اسمه؟! - ولكن ليس قاعدة في التاريخ ابدا ان يسقط كل سبارتاكوس ، ويتنصر كل روماني . واذا كان سقوط البربرية الاسرائيلية هو احتمال اليوم ، ففي غد وبعد غد سيصبح حتمية ...

الى جانب المقاتلين المصريين والسوريين والفلسطينيين يقاتل الجنود المغاربة .. وفوق رؤوس المقاتلين مظلة جوية مصرية وسورية وعراقية وجزائرية ... وبشر النفط اللبية تقدم اوراق اعتمادها للمعركة ، وتونس تقدم المستشفى ، ولكن اين هو المقاتل العربي الجريح من كل أرجاء الوطن العربي? ..

لا مشرحة في المعركة ، ولا تلج يوضع فوق جثث القتلى ... فالمقاتلون ليسوا في حاجة الى تلج ، فهم يسقطون تحت أشعسة الشمس من أجل ان تتحول جلودهم الى حقول قمح وقطن وورد ... وعلى الذين لا يقدمون للمعركة غير التلج ان يحتفظوا به لكؤوسهم

أجل ... فمع مرحلة التعتيم في الارض المحتلة ، يقومون بالتنميط أيضا على أخبار المقاتلين الفلسطينيين ، في الوقت الذي تتساقط فيه صواريخ الثورة على مستوطنات الاحتلال في الجليل الاعلى والجولان وبيسان ، وفي الوقت الذي تتساقط فيه فئابسل الثورة الفلسطينية فوق القاعدة البحرية في عنتيت ، وتقوم بنسف خزانات الوقود في مطار تل ابيب .

أجل ، للمرة الثانية ، يقوم العدو بالتنميط نلى المارك الدموية التي تخوضها الثورة الفلسطينية خلف خطوطه الخلفية وفي خطوط المواجهة الامامية معه . فالعدو يعامل الثورة الفلسطينية كما يعامل مصابيح السيارة التي يفرض عليها ان تقوم بعملية التعتيم على أضوائها ، فتقوم بطلاء مصابيحها الامامية باللون الأزرق .

غير ان عمليات التعتيم على اخبار الثورة الفلسطينية ليست بالامر المفاجيء ، وليست هي المفاجأة بالنسبة الى الثورة الفلسطينية . فلقد كانت المفاجأة الكبرى من جانب الدكتور كيسنجر ، وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية ... فلقد فوجيء الدكتور كيسنجر - على حد قوله - بالمعارك التي تدور في صحراء سيناء وفي المرتفعات السورية ، وفي قلب الارض المحتلة !

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه الآن ، هو لماذا فوجيء بالاحذية العربية وهي توقع في « اوتوغراف » أرضها المحتلة؟! هل كان الدكتور كيسنجر يتوقع استمرار اغلاق أفواه المدافع ، وتحويل منطقة « الاحرب - للاسلام » ، أي تحويل الارض العربية المحتلة كلها ، الى حديقة خاصة او عامة ، الى حديقة اميركية - اسرائيلية .. او تحويل سيناء والمرتفعات السورية الى « كيبوتس » اسرائيلي ؟

غير ان الدكتور كيسنجر لم يفاجأ وحده باشتعال النيران ، بل فوجيء رئيسه نيكسون ايضا ، الذي أيقظه وزير خارجيته من نومه ، وأبلغه خبر استئناف الحرب في الجبهتين المصرية والسورية . ان سرير « الاحرب - للاسلام » ، لم يعد هو السرير النموذجي ابدا لا للدكتور كيسنجر ، ولا للرئيس نيكسون ، ولا لكل الذين قاموا باستغلال مناجم الذهب والفضة والماس في حقول منطقة « الاحرب - للاسلام » .

ان مواشير المدافع لم تنتظر ان تخرج من قبعة الدكتور كيسنجر تلك المناديل الملونة لحلول التنصية ، فلقد خرجت من حوزة المحارب العربي ، بدل المناديل ، رايات عربية طمرتها ، لسنوات مضت ، الرمال التي كانت تتحرك من منطقة « الاحرب - للاسلام » .

... الثلج لكؤوسهم ، وليس لافواه القتلى !..

ان القدم العربية ، حين لامست الارض المحتلة ، قد ألقت
بيدتها في رحم تلك الارض ..

والبدرة تتحول الآن الى نطفة ، وستكبر النطفة ، وتحت جلد
الارض المحتلة ، التي ذاق طعم الدم العربي ، ستترعرع تلك
النطفة ...

لقد جبلت الارض المحتلة حين لامستها تلك القدم العربية ،
ولا بد ان تلد ... وستلد فوق أرض القتال ، في سيناء وفي المرتفعات
السورية وفي الارض المحتلة ، فلقد جبلنا وولدتنا ، لسنوات طويلة
مضت ، في منطقة « الاحرب - الاسلام » .. وجاء كل اطفالنا
مشوهين .. وغير شرعيين ايضا !

ان أعظم ما تقدمه أيام القتال لنا الآن ليس تحرير هذا الجزء
المحتل من الارض العربية او ذاك ، ولكنها قامت بتحريرنا - نحن -
من أولئك الذين في أعقاب هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ وضعوا
الرباط الأسود لموشى دايان فوق عيونهم ، وانها لوالى على ثقافتنا
وتاريخنا وحضارتنا ضربا بالعصي والكراييج ، وقاموا بتسميم كافة
الآبار التي كنا نستقي منها . لقد فعلوا هذا لانهم كانوا يعتقدون
بان هذه هي فرصتهم . لقد وجدوا في الحرب الصاعقة الاسرائيلية
أسلوبا لحرب خاطفة في الشعر وفي كل مجالات الكتابة ايضا ..
ومن هنا ظهروا في أعقاب الكارثة الماضية بكامل ثيابهم العسكرية
الشعرية ، وبأعلى صور وأشكال العجرفة الشعرية .

ان أعظم ما قدمته أيام القتال لنا ان القدم العربية قد ألقت
بالقطن الملطخ بالدم ، وبالجبس المتحجر ، وبالمسامير ، في وجوه
كل أولئك الذين تحولوا الى مرضيين وأطباء في مستشفى « الاحرب
- الاسلام » .

ان أعظم ما قدمته أيام القتال لنا انها أعادت الشرف للهواء
العربي ، وللصوت العربي ، واصبح راديو الترانزستور ، ولأول مرة
منذ سنوات طويلة ، مصدرا من مصادر الثقة .
وبعد ذلك ، فالانتصارات لا تقاس بالاميال ولا بالكيلومترات ،
ولكنها في بعض مراحل التاريخ ، وفي هذه المرحلة التي نعيشها ،
تقاس بمساحة تلك القدم ، بمساحة ذلك الحذاء ، لذلك المقاتل
العربي .

الاسبوع العربي

١٥ تشرين الاول

مع أبو عمار ...

فوق صخرة من صخور مرتفعات الرؤوس ، في سفوح جبل الشيخ
الغربية ، والعلم الفلسطيني يتماوج في الهواء ويلقي بظله فسوق
الصخور ، أخرج أبو عمار دفتره الصغير ، الذي يرافقه دائما ،
واقطع منه ورقة وضعها فوق صخرة ملساء من صخور المرتفعات
البيضاء التي تشبه الرخام ، وراح يكتب ..

كان هواء المرتفعات لا يزال مشبعاً برائحة البارود ... وتحت
هذه الصخرة او تلك ، كان هناك اكثر من بقعة من الدم ... تتوهج
تحت أشعة الشمس وهي توشك على الغروب . ولقد ترك المقاتلون
الفلسطينيون بقع دم شهدائهم وجرحاهم كما هي بعد ان استسولوا
على الرؤوس الثلاث في سفوح جبل الشيخ في الساعة الخامسة من
بعد ظهر يوم ٧ - ١٠ - ٧٣ ، وبعد قتال دموي ومواجهة مباشرة

بالرشاشات والقنابل اليدوية مع المفزة الاسرائيلية التي كانت تحتل
الرؤوس الثلاثة وتتحصن خلف صخورها ، وتحت غطاء من قنابل
المدفعية والصواريخ الثقيلة ...

لقد ترك المقاتلون الفلسطينيون بقع دماء شهدائهم الخمسة
الذين سقطوا فوق الصخور البيضاء ، وبقع دماء أحد عشر جريحاً ..
تركوها ، ولم تمتد يد أحد منهم ، يطمرها بالتراب ، او يغطيها
بالاعشاب .

ان الدم الفلسطيني المراق يجب ان لا يفتى ... فما أسرع ما
تشربه الارض ، وتختزته في شرايينها ، من أجل ان تستمر الدورة
الدموية للخصب والغطاء بالنسبة الى الارض .

كان ابو عمار يكتب ومن حوله التفت مجموعة من المقاتلين . ومن
الذي يستطيع ان يمنع عينيه من ان تمتد من فوق كتفي القائد العام
لثورة الفلسطينية ، الذي رفض الا أن يخوض المعارك بنفسه ؟ من
الذي يستطيع ان يمنع عينيه من ان تمتد من فوق كتفي القائد العام
لثورة الفلسطينية ، وهو يضع الورقة الصغيرة البيضاء فسوق
الصخرة البيضاء ويكتب :

« الاخ الرئيس انور السادات ،

« الاخ الرئيس حافظ الاسد ،

« سيطرت قوات الثورة الفلسطينية ، بناء على الواجب المطلوب
منها ، على مرتفعات الرؤوس الثلاث ، في الساعة الخامسة من بعد
ظهر هذا اليوم . كما نفذت قوات الثورة عددا من العمليات فسي
الجبل الاعلى وداخل الارض المحتلة ... » .

ويتوقف أبو عمار لحظة .. ينظر الى وجوه المقاتلين ، وينظر
الى الصخور ، والى العلم الفلسطيني الذي يتماوج في هواء الجبل ،
وكانه يستمد القوة ... فقط من لون واحد في العلم الفلسطيني هو
اللون الاحمر ، لون الدم ، فيواصل الكتابة :

« اخوانكم الثوار يجددون العهد على المضي قدما للاستمرار
في القتال حتى تحقق أمتنا العربية المجيدة انتصارها الكبير بتحرير
كامل التراب .

« أطيب تمنياتنا للانتصارات الرائعة التي يحققها الأبطال على
جبهتي القتال في سيناء والجولان » .
ويقراء أبو عمار تلك الكلمات الكبيرة ، فوق الورقة الصغيرة ،
ويمد بها يده الى أحد المقاتلين وهو يقول :

— معذرة .. فالخط غير واضح ..

غير ان المقاتلين اعتادوا على خط أبو عمار ، كما اعتادوا على
رؤيته دائما بينهم .
وكدت أصرخ :

— لقد تركنا الآلة الكتابة ، ذات الكلمات المطبوعة الواضحة ،
للذين يكتبون وهم خلف مكابهم .
ويتناول المقاتل الورقة الصغيرة ، ويمضي داخل الموقع ...
ليقوم بعملية ارسالها .

أحد المقاتلين استند برأسه الى مدفعه الرشاش وراح ينظر الى
الصخور البيضاء . كانت مستعمرات كريات أشمونا ، هونيمن
مرجليوت ، مسكان عام .. الخ ، تحت قدميه مباشرة ..
كان ذلك المقاتل يستند برأسه الى مدفعه الرشاش ، اما عينيه
فكانتا تقعان فوق المستوطنات الاسرائيلية .. ما أبشع عمليات التزوير
فوق الخارطة ! وكأنه كان يجب على سؤال ، ارتفع صوت ذلك
المقاتل وعيناه لا تزالان ترفرفان فوق ذلك الجزء من ارض وطنه :

— هذه الرؤوس الثلاث ، التي حررناها اليوم في ٧ - ١٠ -
١٩٧٣ ، كان لها اسم آخر عام ١٩٦٩ ... حينما كنا خلف صخورها ،

الاول (١٩٧٣) ، اجتاز الادب العربي خط وقف اطلاق النار ، وعبر قناة السويس ، وفي اقل من ست ساعات ، سقط خط بارليف آخر ، في المسرح والشعر ، في القصة والرواية والمقالة » .

هذه البرقية لم يرسلها بعد اي مراسل ادبي عربي أو اجنبي لجريدته ، او لوكالة انبائه . فاحدى الماسي الكبرى في حياتنا الادبية ان المراسلين الادبيين ، وان الذين يكتبون عموما في بلادنا يتقدمهم دائما المراسلون العسكريون . والمراسلون الادبيون ، كتابا وشعراء ، اما يستمدون ما يكتبون عنه من راديو الترانزستور ، او من تقارير العسكريين المنشورة في الصحف .

غير ان هذه البرقية الهامة جدا ، والتي لم ترسل بعد ، والتي لم يدرك القراء العرب اهميتها بعد - في غمرة المكاسب العسكرية - لا بد وان تتركز عليها الاضواء في مرحلة قريبة مقبلة ، عندئذ سيتناولها النقاد بالدراسة . وستكتب حولها الكتب ، وترص حولها القصائد .. ككياس الرمل .

ففي لبنان اعلن اكثر من مسرحي واكثر من مسرح قراره بالفناء المسرحية التي كانت تجري لها البروفات . انطوان كرياج الفيمسرحية « المارسليلز العربي » وقال :

« لقد سقط عليها عقب سيجارة مشتعل واحرقها » .

اما نضال الاشقر فلقد صاحت :

« ان مرحلة باكملها من المسرح تسقط تحت الانقراض ، اقصد - انقراض خط بارليف » .

وتتابع اقوال المسرحيين في لبنان . ولا اعتقد بان الوضع في البلدان العربية الاخرى ، من حيث ارتباط المسرحية بهزيمة الانسان العربي ، وتكريسها لتلك الهزيمة ، هو افضل حالا من لبنان .

اما بعض الشعراء الذين كان يجب ان يكونوا اكثر جراءة من المثليين ، فلم يصرح احد منهم بكلمة . لقد اكتفوا بسحب قصائدهم من الجرائد ، ومن الملاحق الادبية ، وفوجيء القراء العرب بتوقيعاتهم وهي تنصير الواجهات الامامية للبرقيات والمذكرات المرسلة الى جبهة القتال . ويبدو ان مسألة النقد ، والنقد الذاتي ، هي مسألة لا تشكل اية قيمة ادبية او وجدانية بالنسبة اليهم . فمساحة الذاكرة العربية ، كمساحة الارض العربية ، مساحة كبيرة وشاسعة ، وفيها من الجبال والمرتفعات والغابات والرمال ، ما يكفي لكي يختفي خلفها هؤلاء .

غير ان القضية ، اقصد قضية الخط المسرحي والشعري والفكري ، والموازي لخط بارليف ، على الضفة الشرقية من القناة - اخطر كثيرا من قضية ذلك البعض من المسرحيين والشعراء والكتاب والمفكرين والنقاد والناشرين ... الخ . القضية - وبغض النظر عن ان الذين يحاولون الآن ان يظهرها كالتواضعات من تحت سطح الماء ، فاذا بهم تحت لافتات القتال ، وتحت الاضواء - القضية اكبر من هذا بكثير ، فهي قضية ادب امة باكملها ، قضية ادب امة يبنى من جديد ، ولا بد من القول هنا انه لا يبنى فوق الهواء ، ولا بواسطة لس مصباح علاء الدين ، فاذا بالادب العربي يرتفع شامخا على اعمدة ضخمة من الرخام . فهناك ، ولا شك ، قاعدة لادبنا الجديد . فليس كل الشعراء كانوا يدخنون نارجيلة هزيمة الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، ولا كل الكتاب والمدارسين والمفكرين والمؤرخين تحول التاريخ العربي باكملها الى « نكتة » في افواههم ، ولا كلهم تحولت الحضارة العربية - بالنسبة اليهم ، الى صالون حلاقة يخرج منه صلاح الدين الايوبي وكأنه احد « الهيبيين » ، ولا كلهم تحول الادب العربي فوق اوراقهم رسوما كاريكاتورية بالفحم الاسود منقولة عن لوحات اجنبية بالالوان الزينية !

وفوق صخورها ، كان اسمها « قاعدة التحدي » . ولقد احتفظنا بها ، رغم الدم الذي سكبناه فوق تلك الصخور ... احتفظنا بتلك الرؤوس الثلاث في سفوح جبل الشيخ ، رغم كل مؤامرت الحصار والمطاردة والغارات الجوية . ولظروف خارج اطار الكلام المباشر في هذه الظروف ، هيطنا من تلك المرتفعات ، هيطنا من تلك الصخور ولم نترك غير علمنا الفلسطيني ، وبالطبع فلقد انزله الاسرائيليون ، الذين جاؤوا بعدنا . ولكن انظر . ها هوذا العلم الفلسطيني يرفرف للمرة الثانية ، وبعد غياب خمس سنوات ، يرفرف فوق « قاعدة التحدي » بعد ان عاد لها اسمها .

ونظرت الى العلم الفلسطيني ، وخيل اليّ اني قد اصبت بمعنى الالوان . لم اعد ارى من الوانه الاربعة غير لون واحد ، هو اللون الاحمر . اما الالوان : الاسود والابيض والاخضر ، فلقد طمست تماما ، كأنها لم تكن من قبل من ضمن الوان العلم الفلسطيني ! ولم اكن انا وحدي الذي كان ينظر الى العلم الاحمر . فلقد كان ابو عمار ، هو الآخر ، يسלט عينيه فوق ذلك اللون ، وكأنه كان يريد ان يقول للمقاتلين :

- لقد شطبنا اللون الابيض من خارطة الواننا - وانتم تعرفون جيدا معنى هذا اللون - اما اللون الاسود ، فلقد عشناه طيلة ايام الحصار والمطاردة . انا لا استطيع ان ارفض اللون الاخضر . فهو لون وطني . لون شجرة الزيتون ذات الجذور العميقة في الارض .. فحافظوا على اللون الاحمر ، فهو لون دمنا ، كما تحافظون على حدقة العين .

ونفض ابو عمار ، والتف حوله المقاتلون . ومضى الى حيث ارتكز العلم الفلسطيني فوق اعلى صخرة في الرؤوس الثلاث ، في سفوح جبل الشيخ ، في الارض المحتلة ..

مضى ابو عمار الى العلم الفلسطيني ، وقصد غربت الشمس تماما ، ومضى اليه احد المقاتلين ، كأنما كان يريد ان يذكره بان الشمس قد غربت ، وان عليه ، وهو صائم ، ان يتناول طعام فطوره الآن .

ووضع ابو عمار كفه فوق عينيه ، ليحجب الدموع التي راحت تترقرق من عينيه وهو يقول :

- لقد كانوا صائمين مثلي ، اولئك الذين حرروا الرؤوس الثلاث من سفوح جبل الشيخ ، وسقطوا فوق هذه الصخور .

ومضى ابو عمار الى العلم الفلسطيني وقبلة ... قبله وبكى . وبكى المقاتلون من حوله . انها دموع الرجال . في مثل هذه اللحظات ، فاما ان تصاب بالجنون . او تقدم حفنة من العشب ، يظفر بها القائد العام لثورتك !

... وغربت الشمس . ورغم ان الشمس قد صبغت مصابيحها ونوافذها باللون الازرق ، فلقد رايت ابو عمار . رايتته وهو ينحني فوق الارض ، ويتناول حفنة من التراب مصبوغة بالدم ، يتناولها ويشمها كالورد ، ويقبلها ، ويضعها في جيبه ويمضي ..

الاسبوع العربي
١٥ تشرين الاول

سقوط الوجه الآخر لخط بارليف

« في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر السبت ٦ اكتوبر (تشرين)

فهنا ، ولا شك ، أولئك المفكرون والنقاد والكتاب والشعراء الذين لم يقصوا جلد وطنهم ، ويحاولوه الى ما يشبه مناديل الورق في جيوبهم ، او فوق مكاتبهم ، بل حاولوا ان يلتقطوا من تحت انقاض الهزيمة حجر الماس الذي سقط من صدر الانسان العربي - والذي هو قلبه - ورغم سقوطه فلم يكف عن الخفق والومض .

القضية اذن اكبر من قضية الذين تحولوا الى مقالبي توريد المسرحيات والقصائد والكتب الى مستشفى اللاحرب - اللاسلم ، حيث تمدد الانسان العربي فوق سرير وساقه في الجبس وعنقه ايضا ..

فالقضية ، كما قلت ، هي قضية ادب باكملة .. اذ كيف يمكن ان يتحالف ، على جرح وطن - كل تلك الديدان ، رغم مختلف الجحور التي انحدرت منها ، تملأ بطنها - كالعقبة - بالدم ، ثم تعود الى قاعدتها .. وبالعكس ؟ والافطع من هذا ، كيف اقبلت قطاعات كبيرة من الذين يقرأون في هذه الامة على عملية نفع تلك الديدان ، وتحولها الى بالونات او مناطيد ، والبعض منها تحوله الى مراكب فضائية ؟!

لقد ضربتنا الهزيمة فوق الرأس وسقطنا .. سقطنا في دوامة من القيوبية ، وحينما قمنا بتحريك اطرافنا ، نتحسس نبضات الحياة الباقية في عروقنا ، رأيناهم فوق رؤوسنا . نطالب بالارطة البيضاء ، فيلفون وجوهنا بقصائدهم . نطالب بزجاجة من الدم ، فيكسرون فوق رؤوسنا زجاجة من الجبر الاحمر .. وحينما كنا نحاول الرجوع ولو قليلا الى الوراء ، لكي نتزود وسط دجاجير الهزيمة بحفنة صغيرة من الضياء ، من ايدي ابطالنا وتراثنا القومي ، كانوا يقومون بعملية استحضار ارواح اولئك الابطال ، فاذا بابطالنا يتكلمون لغة المهرجين والبهلوانات .

كانت امة تحت الانقاض ، امة في السرداب ، تبحث من طاقة صغيرة من الخور ، تندفع اليها .. كانت امة تحس انها اعطت صوتها بلا تحفظ ، وضمت توقيعها في ذيل ورقة بيضاء وألقت بها فسي الصندوق الانتخابي ومضت ، وحينما احسست بفاجعة انهيار كل شيء - كانما احسست بمسؤوليتها - اندفعت الى ادب نارجيلية الهزيمة ، تشم دخانها وتملا رثيتها بالغاز السام ، وتسمع الى « قرقرة » القصائد في داخل هذه النارجيلة او تلك ، وتتأوه .. فالجماهير ايضا ، في بعض مراحل التاريخ ، تستمتع بادب التعذيب للنفس .

غير ان الاستمتاع بالذباب لم يدم لفترة طويلة ، فما أسرع ما نهض من تحت الانقاض انسان جديد ، هو انسان المقاومة الفلسطينية . وحدث ان هذا الانسان قد تحول الى « صرعة » او ما يشبه الوضوء الجديدة بالنسبة الى ركاب طائرات الهزيمة وركاب طائرات الانتصار معا ، فاستقلوا اول طائرة الى المقاومة الفلسطينية .

وتمر سنة العسل بين المقاومة وركاب طائرة المقاومة ، وما ان تبدأ مرحلة الحصار والمطاردة ، ومرحلة شارع فردان ، ومرحلة رسائل الديناميت ، حتى يقفز هؤلاء بالظلة ، لا يهم أين يقفون وأين يسقطون .. المهم ان يقفوا ، قبل سقوط الطائرة . هكذا خيل اليهم . ولو كان القارئ العربي يتابع الخط البياني لتلك البطانة الشعرية والفكرية والادبية لوجد ان الخط البياني سيتوقف عند نقطة ، هي ان هؤلاء الذين وجدوا في انتصارات المقاومة ذلك التغيير لصوتهم الشعري الذي علاه الصدا واحترق كحجر من المطاط من فرط ما زعق بادب الهزيمة ، هم أنفسهم ، او غالبيتهم العظمى ، اولئك الذين اندفعوا في عملية تجريح وتلطيح للمقاومة ، باسم النقد

والنقد الذاتي .. هذا النقد والنقد الذاتي ، اللذان لم يعرفهما طيلة حياتهم ، ولم يمارسوهما لا كتابة ولا سلوكا . وها هم الآن هم ، ركاب طائرة الهزيمة ، وركاب طائرة المقاومة ، ثم ركاب طائرة ضرب وجه المقاومة ، ها هم الآن ، ركاب طائرة جبهة القتال ، وركاب طائرة البرقيات والمذكرات !

اكتب هذا من منطلق واحد : هو ان ادب امة ، ادبها وشعرها وفكرها ، يجب ان لا يعامل ابدا معاملة « الاوتوبيس » الذي ينتقل من محطة الى اخرى ، وان ادب الشعوب وفكرها ليس ابدا طائرة ركاب عابرة للقارات ، يمكن ان يأخذ مقعده فيها أي كاتب او شاعر ، بمجرد ان يشتري تذكرة السفر ، ويأخذ تاشيرة المرور وفي جيبه شهادة صحية .

ان ادب الامم وشعرها ، الذي هو روحها ونبضها ووجدانها ، يجب ان تكون له قداسته الى تلك التي يجب ان تصدّ فيها غارات اللصوص . فالادب العربي ليس كهفا من كهوف علي بابا والاربعين لصا ، ليس كهفا تخفي فيه السرقات المتواصلة وعمليات السطو المتواصلة على كنوز هذه الامة .

فالقواميس السياسية والادبية والاجتماعية ، بل على جميع المقاييس الحضارية ، هناك تلك القاعدة التي تحتم دائما مراجعة المواقف من عمليات التغيير الكبرى . واذا كان للشاعر او للكاتب ذلك الشرف العسكري للمقاتل - ويجب ان يكون له هذا - فيجب ان لا يخجل ابدا من عملية المراجعة لموقفه ، ومن الخروج على القراء بكامل ثيابه المطرزة بكلمات الهزيمة وتكريس الانكسار .

هكذا يفعل كتاب وشعراء الامم الاخرى في مراحل التغيير ، يقومون اول ما يقومون بعملية النقد والنقد الذاتي لكل ما قدموه من ادب اسود ومن حبر شبيه بالسم ان لم يكن اكثر فتكا . يفصل هذا كتاب وشعراء الامم الاخرى ، لانهم يحترمون أنفسهم كشعراء وكتاب ، ويحترمون اممهم أولا وقبل كل شيء ..

اكتب هذا وأنا اعرف مقدا ان مساحة الذاكرة العربية كمساحة الارض العربية ، وهي مساحة شاسعة تماما يمكن ان يختفي فسي جبالها ومغاورها وفي غاباتها ، كل الذين يرفضون مواجهة النفس ، ويتوهمون بانهم قد افلتوا من المسؤولية ، ومن العقاب ايضا .

ولكنهم ينسون شيئا واحدا ، او هم لا يحاولون ان يتذكروا ، وهذا الشيء هو بالتحديد انهم حينما يواجهون أنفسهم ، ويقبلون ملفات قصائدهم ودواوينهم ومسرحياتهم وكتبهم ، عليهم ان يسألوا أنفسهم هذا السؤال الواحد :

((كم بقي لنا الآن ؟ .. كم قصيدة بقيت بعد الساعة الثانية من بعد ظهر السبت الموافق ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ؟ كم قصيدة بقيت ، وكم قصة وكم رواية وكم مسرحية ؟)) .

وأنا لا أتمنى ابدا ان يسقط عقب سيجارة مشتمل بصورة عفوية من يد أحد القراء ، ويفرم النيران في كل الذي كتبه .

على عكس هذا تماما ، يجب ان تكون كل القصائد والمسرحيات والدراسات والكتب والقصص والروايات ، عن العدمية والموت ، بالمجان ، وكل صور وأشكال الانبعاثات العقلية ، مادة موضوعية للدراسة النقدية الجادة .

اذ ليس من المقبول ابدا أن يتم خروج ذلك المقاتل العربي من الهواء ، ليعبر القناة للضفة الاخرى من سيناء ، ويعبر خط انطلاق النار الى الصخور والمرتفعات السورية ...

بالقطع ، فعمر ذلك المقاتل ليس اسبوعا ولا اسبوعين ولا ثلاثة اسابيع . أي انه بالتحديد لم يولد ظهر السبت ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٢ ، فمتوسط اعمار جنودنا بين العشرين والثلاثين .

وهنا لا بد ان يطرح هذا السؤال الكبير نفسه : اين كنا اذن وسط كل عمليات التغيرات الكبرى في داخل الانسان العربي والمقاتل العربي ؟ لا بد وان تغيرات جذرية قد حدثت . وبالطبع فتلك التغيرات - واقصد بها التغيرات النفسية والوجدانية والروحية والعقلية - لم تتم تحت الارض وبشكل سري ، فاولئك المقاتلون لم يهبطوا علينا من القمر ، ولا من كواكب اخر ، انهم ابنا العمال والفلاحين فسي بلادنا ... وكل واحد منا ولا شك له اخ او ابن عم او صديق من هؤلاء المقاتلين . وبالطبع فالمسؤولية لا يتحملها كاملة اولئك الذين يكتبون ، بل يشاركون ايضا في المسؤولية كل من اقام الحواجز او قام بمد الاسلاك الشائكة للمزلة بين الكاتب وبين وطنه .

ومع ذلك فلقد فوجئنا بتلك التغيرات كلها ، ولو كنا على درجة او اخرى من الالتصاق بهؤلاء ، لعرفنا ببعض تلك التغيرات ، وكننا عنها ، ولكن المفاجأة التي ضربت راسنا بهراتها كانت تعني شيئا واحدا ، لا يمكن ابدا انكاره ، هو اننا كنا في عزلة تامة عن كل تلك التغيرات - ومن اجل هذا كنا نكتب في الاتجاه المضاد تماما وفي الاتجاه العاكس . كان المقاتل العربي يكسر الجبس عن قدمه ، واقدامنا لا تزال في الجبس ، ونتوهم ان كل شيء قد اصبح فسي الجبس . وهكذا تحول ادبنا في خطوطه العريضة ، وتحول شعرنا في خطوطه العريضة ايضا ، الى ادب في الجبس ، والى شعر في الجبس ، الى كتاب وشعراء في الجبس ، من الرأس الى القدم .

هناك مفارقة غريبة في كل ما حدث ، وهو ان المتنبئ - الذي اوشك بعض الكاتبيين والدارسين والشعراء ان يطالبوا بتعليق صورته فوق جدران مخازر البوليس ، ويطالبوا بالقبض عليه حيا او ميتا لان قصائده فد كتبت بحد السيف ، ولانه كان شاعر مرحلة مواجهة ، وشاعر معركة المفارقة القريبة العجيبة ، ان المتنبئ ، بكامل اسلحته وقصائده ، كان مع الدفعة الاولى التي افتحمت خط وقف انطلاق النار في الجولان ، وان المتنبئ كان أحد المدافعين عن الجولان وربما كان يطلق « صاروخ سام ٦ » ، او ربما كان يقود دبابة ..

المتنبئ لم يفاجأ وكان مع الدفعة الاولى من المقاتلين ، لانه - ومنذ مئات السنين - كان يعرف ذلك الشيء البسيط الذي هو الانسان العربي ، وكان ملتصقا به . ولم تكن معارك سيف الدولة كلها بالمعركة المنتصرة ، فما اكثر ما هزم سيف الدولة ، ولكن حجر الماس ظل على خفقه وومضه في صدر المقاتل العربي .

انا اضع يدي على قلبي الآن ، فاذ ننتقل دفعة واحدة من خط الهزيمة المطلقة الى خط الانتصارات المطلقة ، اخشى ان تصبغ القصائد المنتصرة في مستوى « الساندويتش » ، وان تفتح اكشاك شعرة جديدة لبيع مثل هذا « الساندويتش » الذي سيقبل عليه القراء ولا شك .

اخشى هذا الانتقال المطلق ، لان علينا ان نعامل انتصارات وطننا لا كاوتوبيس ركاب ، ولا كطائرة ركاب ، ولا كعربة شحن ، ولا « كساندويتش » . فلقد تغير المقاتل العربي وتغير الانسان العربي ، وعلينا نحن ايضا ان نتغير .

الاسبوع العربي
٢٢ تشرين الاول

الثورة والثورة المضادة

تأليف هيرت ماركوز
ترجمة جورج طرايبشي

نحو حساسية ثورية جديدة

في الوقت الذي توجه فيه الرأسمالية اهتمامها الاول الى اخماد حرائق التمرد والثورة داخل حدودها وخارجها على حد سواء ، تبدو انها شرعت باعادة تنظيم نفسها تحسبا وتحاشيا لخطر ما يزال غامضا لكنه كلي الحضور ، خطر حركة تعانق لاول مرة في التاريخ الكرة الارضية بأسرها . وازاء الاعراض الاولى لهذا الخطر المستطير تنكب الرأسمالية على تأسيس الثورة المضادة وتكريسها . هذا لا يعني انها لم تعد تنجب بنفسها حفاري قبرها ، ولكن وجوههم تختلف اليوم عما كان متوقعا ، كما لم يعد شاغلهم الاوحد تغيير العلاقات الانتاجية والطبقية ، وانما ايضا العلاقات بين الانسان والطبيعة ، طبيعته الذاتية والطبيعة المحيطة به ، وكلتاها على حد سواء عرضة اليوم لتخريب منهج .

في هذا الكتاب الجديد الهام يرسم ماركوز ، عبر تحجر النظريات الثورية المعهودة ، المعالم العريضة لحساسية ثورية جديدة .

يصدر قريبا